

نظرة في معاجم اللغوية

الأستاذ: عيسى فتوح

العرب ، بأن الفيا باب الحرف الاخير وفصل الحرف الاول للاصل الثلاثى للكلمة ، واكتفيا بباب الحرف الاول ثم طبعا في ثلاثة اجزاء فقط ، فوفرا بذلك العمل الكثير من الوقت والجهد على المراجع .

علة هذه المعاجم جيبا هي تحجرا وجبودها ، ذلك انها تعنى باثبات الالفاظ القديمة حتى ولو كانت غريبة وميتة ، وتحاول توضيحها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذى يحتج به ، وتهمل كثيرا من الالفاظ والاستعمالات الجديدة التى وردت على السنة الشعراء والكتاب المتأخرين ، فالاحتجاج يقف عند هؤلاء المؤلفين عند نهاية العصر الاموى فقط ، ولا يمتد الى العصر العباسى ، بحجة أن اللغة فشا فيها الكثير من اللحن والخطأ على السنة العامة من الناس ، لاختلاط العرب بالاعاجم من فرس وروم واتراك وغيرهم .

الواقع ان هؤلاء العلماء كانوا شديدي التزم ، متحفظين أكثر من اللازم ، الامر الذى دفع المستشرق الهولندى « دوزى » الى تأليف معجم ضخيم سماه « ملحق المعاجم العربية » نشره فى ليدن ، فى مطلع هذا القرن .

لقد بين دوزى ان واضعى المعاجم العربية كانوا راغبين عن استعمال أى كلمة لا تمت بصلة الى لغة القرن الهجرى الثانى وما قبله ، واتفق فيه عند الزمن

لو رحنا نحصى اسماء معاجمنا اللغوية التى الفت على مدى عشرة قرون ، منذ أن صنف الخليل بن أحمد الفراهيدى أول معجم له وهو «كتاب العين» حتى اليوم لبلغت العشرات طبع بعضها ، وما يزال بعضها الآخر مخطوطا . من هذه المعاجم المطبوعة الميتة — اما لقلة استعمالها ، واما لانها توقفت عند عصر معين — يمكننا ان نعد : «الجمهرة» لابن دريد» ، «التهذيب» «لابى منصور الهروى» ، «المحكم» لابن «سيده الاندلسى» «المجل» و «مقاييس اللغة» لابن فارس» ، «اسباس البلاغة» «للزمخشري» ، «النهاية فى غريب الحديث» «لابن الاثير» ، «المصطلح المنير» «للفيومى» ، «تاج اللغة وصحاح العربية» «للجوهرى» ، «لسان العرب» «لابن منظور» ، «القاموس المحيط» «الفيروزابادى» الذى شرحه المرتضى الزبيدى فى القرن الثامن عشر الهجرى وزوده بالشواهد الكثيرة فى معجمه «تاج العروس» .

هذه المعاجم على كثرتها ، غير كافية لانها بعيدة جدا عن مقتضيات العصر ، وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ ، وانطلاقا من هذا المبدأ فقد عبد الاستاذان يوسف خياط ، ونديم مرعشلى فى بيروت الى تغيير طريقة الكشف فى لسان

الازهرى ، و «وصحاح» الجوهري ، و «محكم» ابن سيدة ، و «نهاية» ابن الاثير ! .

المعاجم الحديثة :

استمرت الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر ، حينما تنبه المطران جرمانوس فريحات الحلبي (1670 - 1732) الى ظاهرة توقف المعاجم عند تاريخ معين ، ولاحظ هذه الفجوة الكبيرة بينها وبين لغة ما يكتب وينشر ، فهي في واد واللغة في واد آخر ، فألف معجمه « أحكام باب الاعراب » الذي اعتمد فيه على القاموس المحيط ، والمصادر التي نقل عنها ، فأخذ منها ما أهمله القاموس من الفاظ ، وأضافها اليه من جديد ، نجاعت مكملة له ، ملتزمة بهادته كل الالتحام .

ثم تلاه أحمد فارس الشدياق (1804 - 1888) الذي ألف معجمه « الجاسوس على القاموس » في نقد القاموس المحيط فجاء في حوالى سبع مئة صفحة ، وكانت غايته منه الوصول بالمؤلفين الى إيجاد معجم عربى حديث يستوعب أكبر عدد من الالفاظ الدقيقة المستعملة في أقل عدد من الصفحات .

لم يكتب الشدياق بهذا القاموس ، بل ألف معجما جديدا اعتمد فيه على مخارج الحروف وعلى القلب والابدال أسماء « سر الليل في القلب والابدال » جمع فيه المفردات المتداولة والمترادفات ، وما استدركه على الفيروزابادى من الالفاظ والمعاني .

لقد كانت غاية الشدياق من معجمه إبراز فضل اللغة العربية وإيضاح مزاياها ، والسمي الى اثبات حقيقة مرونتها ، وأنها غير قاصرة عن استيعاب العلوم والمصطلحات المصرية .

ثم سار على منواله في حركة الاحياء اللغوى عالمان لبنانيان آخران هما بطرس البستاني (1819 - 1883) صاحب « محيط المحيط » الذي رتب مواده ترتيبا هجائيا سهلا ، واقتصد في الشواهد والنصوص ، وسعيد الشرتونى (1849 - 1912) صاحب « أقرب الموارد في نصيح العربية والشوارد » الذي لقي رواجاً أكثر بسبب أحكام ترتيبه ، واختصار شواهد .

وما ان اطل القرن العشرون حتى ظهرت العناية

الذى بدأ فيه العرب يحتلون مكانتهم في ركب الحضارة العالمية ، ويتقبلون كثيرا من الالفاظ الجديدة التى ترجع بأصولها الى اللغات الأجنبية ، كى يعبروا عن الاشياء والافكار الجديدة .

ان اهلال معاجمنا القديمة الكثيرة من الالفاظ والاستعمالات الحديثة فى ازهى عصور الحضارة العربية - كالعصرين العباسى والاندلسى - اصاب اللغة فى الصميم وجعلها تفقد جانبا كبيرا من مرونتها وطواعيتها ، وتتخلف عن مواكبة الحياة ، وتبقىها هياكل محنطة لا يجرؤ اى كاتب أو شاعر أن يخرج عن الحدود الضيقة التى رسمتها هذه المعاجم .

ولكى لا يختلط كلام العرب الدخيل بالكلام الفصيح فى معجم واحد ، عمد الجواليقى فى القرن السادس الهجرى الى تأليف كتاب خاص أسماه «المرب» جمع فيه الالفاظ التى لم تدخل المعاجم ، لأنها جاءت بعد القرن الهجرى الثانى ، وكذلك فعل الشهاب الخفاجى فى كتابه « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » .

لاشك فى أن المعاجم العربية القديمة غنية المادة ، تدل على اطلاع واسع ، ومجهود كبير فى الجمع والتصنيف ، ولها قيمة تاريخية لا تنكر ، وستظل خير مورد لنا فى معرفة أصول الكلمات ، ومعانيها الغريبة ، وعباراتها الغامضة ، الا انها كثيرا ما تخطئ فى ضبط الكلمات ، وتكثر من ايراد المترادفات والاستشهادات من القرآن والحديث والشعر الجاهلى والاسلامى ، ولا تقبل الا ما أخذ عن البداية ، وتقف فى الاحتجاج عند القرن الهجرى الثانى ، مهمله جميع العصور التى تعاقبت بعد ذلك ، فلم تمثل بذلك العصر الذى جمعت فيه ، وكان اللغة تجمدت عند هذا القرن ، ولم تتطور او تستفيد من لغات الأمم والشعوب التى امتزجت فيها ، وصارت جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية .

لقد اغفلت هذه المعاجم قانون التطور الذى يقضى بأن تسير اللغة العصر ، وتتابع سير الحياة والمجتمع الذى عاشت فيه ، بالاضافة الى ما ورد فيها من حشو وتكرار واجترار ، يأخذ باللاحق عن السابق ، حتى أن ابن منظور صاحب أكبر معجم عربى وهو «لسان العرب» يعترف بأنه لم يفعل شيئا أكثر من أنه جمع « تهذيب » .

تد سار فيه شوطا طويلا ، فأكمل المجمع ما بدأ به فيشر ، ونشر عام 1956 جزءا منه في حوالي خمس مئة صفحة ، ضم الفاظا حديثة الى جانب الالفاظ التي كانت سائدة في الجاهلية وصدر الاسلام ، وأخذ بنصيب وافر من المصطلحات العلمية والتاريخية والجغرافية وأسماء الاعلام ، والتزم ببدا تقديم الانفعال على الاسماء والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

الا ان المعجم الوسيط الذى صدر بعده بجزئين كبيرين وفي حوالي الف ومئة صفحة لسد حاجة الطلاب والمدارس ، كان اكثر استعمالا ، واوفى بحاجة الراغبين في البحث السريع والدقيق ، فقد جاء محكم الترتيب ، واضح الاسلوب ، سهل المأخذ ، مزودا بالصور ، بالاضافة الى احتوائه طائفة كبيرة من مصطلحات العلوم والفنون واسماء الاعلام البارزين ، والامكن ، على نمط معجم «لاروس» الفرنسى . والاهم من ذلك كله انه ضم جميع مفردات اللغة قديمها وحديثها ، واخذ بها استقر من الفاظ الحياة والناس .

كما انه رتب الكلمات حسب نطقها ، لا حسب تصنيفها ، اذ لا يستطيع التلميذ الحديث السن أن يسرد الكلمة الى اصلها الثلاثى ، لينطلق في معرفة باقى معانيها — ومثل ذلك فعل جبران مسعود فى الرائد ، ومؤلفو المنجد الابجدى — ، وسهل الشرح ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى بالضرورة من الشواهد لثلا يضيع المراجع فى متاهاتها وتشعباتها ، وطور اللغة ، فقام السامع ، وقبل الكثير من الالفاظ المولدة والمحدثة أو المعربة ، أو الدخيلة ، وفتح المجال للعديد من الفاظ الحياة العامة ، والالفاظ التى أدخلتها الحضارة ، ويكتفي شهرة أنه جدد اللغة ، وجعلها عصرية ، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

ما أوجنا اليوم الى معاجم عصرية ، تتجدد طبعاتها كل عام ، فتضم اليها كل ما دخل اللغة من الفاظ حديثة وتبناها ، لان لغتنا كغيرها من اللغات لا يمكن أن تعيش معزولة عن سائر اللغات العالمية ، تأخذ منها وتعطيها ، تستفيد منها وتفيدها ، ولا معنى لادعاء البعض أن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب مصطلحات

الخاصة بالمعاجم ، ولا سيما الصغيرة الحجم مثل «مختار الصحاح» «للرازى» و «المصباح المنير» «للفيومي» ، لكنهما يظلان ناقصين عن استيعاب الالفاظ والكلمات الحديثة المستعملة التى يحتاجها الكاتب ، وتقتضيها طبيعة العصر ، الى أن ظهر معجم «المنجد» للاب لويس معلوف اليسوعى فى طبعته الاولى عام 1908 وهو معجم صغير سهل الاستعمال ، تتالت طبعاته بسرعة هائلة حتى الآن اثنتين وعشرين طبعة ، ثم اضيف اليه فى الطبقات الاخيرة قسم جديد للاداب والعلوم وفهرس للاعلام ، وقد سار فى طريقته على منهج معجم «لاروس الصغير» وخاصة فى قرب مأخذه ووسائل ايضاحه ، ولوحاته وصوره ورسومه .

كذلك أخرجت مطابع لبنان معجمين حديثين آخرين هما «الرائد» لجبران مسعود الذى رتب مواد حسب لفظ الكلمة دونما حاجة للرجوع الى اصلها الثلاثى ، وخلال المراجعة يبين ذلك الاصل ويضبط عين المضارع ، اما المعجم الآخر فهو «المنجد الابجدى» الذى صدر عن دار المشرق ويتبع الطريقة نفسها ، وفى المعجمين جهد واضح ورغبة ظاهرة فى تيسير المراجعة والبحث ، لكنهما اغفلا كثيرا من المصادر والجموع ، وشنتا المادة اللغوية فى امكن متعددة .

المعجم الوسيط :

اللغة كل متصل الاجزاء ، لا يمكن أن تفصل حاضره عن ماضيه ، والعربية — ككل لغات العالم — لها ماضيها الخالد ، وحاضرها الحى ، ومستقبلها المشرق فكيف نتف بها عند القرن الثانى أو القرن الرابع الهجرى؟ اذا توقفنا بها عند زمن معين — كما فعل علماء اللغة والنحو ومؤلفو المعاجم القديمة — قضينا عليها بالموت تضاء مبرما ، ولذلك يجب علينا اليوم أن نؤلف معاجم يتصل فيها حاضر اللغة بماضيها ، ويحفظ فيها ما جدد واهل لقللة الاستعمال — كما تحفظ الموميات فى المتاحف — الى جانب الالفاظ الحية ، والكلمات المستعملة . اللغة كائن حى يجب أن تتجدد خلاياه باستمرار لئلا يندثر ويموت ، ومن هذا المنطلق نهض مجمع اللغة العربية فى القاهرة عام 1946 لتأليف معجم كبير وآخر وسيط مستعينا بالمستشرق الالماني الدكتور «فيشر» الذى عنى بالمعاجم العربية ، ورغب أن ينهج فيها نهجا جديدا ، لكن الرجل توفى عام 1949 دون أن يحقق العمل المرجو ، وان كان

العلوم والفنون والتكنولوجيا الحديثة ، وإنها لغة لا تقبل
التجديد والتطور .

يمكن أن تسير لغتنا الجديدة جنباً إلى جنب مع
لغتنا القديمة ، فيستعمل الكاتب ما يشاء من اللفاظ
والتعابير ، ولا بأس أن يلجأ إلى القياس والنحت
والاشتقاق ، عندما تقتضيه الضرورة ، وأن يبتكر اللفاظ
جديدة وعبارات لم تكن من قبل ، فاللغة تحيا على السنة
الناس ، وأقلام الكتاب ، وليس في المعاجم التي تحفظها
وتصونها فقط .

المصادر :

- 1 — نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب
(في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا)
الجزء الأول — الدكتور أمجد الطرابلسي —
مطبعة الجامعة السورية 1955
- 2 — حركة الأحياء اللغوي في بلاد الشام
— الدكتور نشاة ظبيان — مطبعة
سميراميس دمشق — 1976
- 3 — في اللغة والأدب — الدكتور إبراهيم بيومي
مذكور — اقرا — 337 — يناير 1971

